مجلة جامعة الملك سعود، م١٢، *الآداب* (١)، ص ص ٣-٤١ (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

التشبيهات العقم : خصائصها ومكانتها في البحث النقدي والبلاغي

حامد صالح خلف الربيعي

أستاذ مساعد، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى،
مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ٢٠/ ٩/ ١٤١٧هـ، وقبل للنشر في ١٩/ ٢/ ١٤١٨هـ)

ملخص البحث. يتناول هذا البحث موضوع التشبيهات « العقم » ، تلك التشبيهات التي تلقتها الذائقة العربية بمزيد الإعجاب ، حيث وجدت فيها أنموذجا راقيا للتشبيه في القصيدة العربية القديمة ، فاشتهر أمرها ، وتناقلتها الألسنة والأقلام انبهارا بها ، حتى خصها أهل العلم بالشعر بتسمية تعبر عن التفرد والخصوصية على مستوى الشكل ، وعلى مستوى المضمون . ولكن جاء زمن لم يعد يعرف عن تلك التشبيهات سوى اسمها ، واشتهر بين الدارسين ماهو دونها ، مع أنها قد واكبت البحث النقدي والبلاغي منذ البداية ، حتى استقرت قضاياهما في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وكان لها حضورها التاريخي والفني في ميدان الإبداع وفي ميدان النقد .

ويأتي البحث محاولة للإجابة عن أسئلة من نوع : مامفهوم « العقم » في الاصطلاح البياني ؟ ومتى ظهرت تلك التسمية ؟ وما أبرز الخصائص الفنية التي تميز تلك التشبيهات عن سواها ؟ ومامدى حضور تلك الخصائص في التفكير النقدي والبلاغي ؟

إن هذه الأسئلة ، ومايتولد عنها من أفكار محورية أو جزئية ، هي موضوع البحث ولبه ، والتوصل إلى إجابات شافية في ضوء المادة العلمية المتاحة ، هو المطلب والغاية .

احتل التشبيه مكانة خاصة في وجدان العربي ، أدرك قيمته الفنية في التعبير الأدبي ، فاحتفى به أيما حفاوة ، منذ قصد القصيد ، ومنذ أخذ يبحث عن أكثر الأساليب تأثيرا ، وأجملها تصويرا ، وأحسنها أداء ، عرف خصائصه الفنية فاسترفدها ، وخبره حتى أصبح ميدانا خصبا يتسابق في مضماره البلغاء ، ويتفاضل فيه الإبداع ، قبل أن يعرف لهذا الفن تعريف نظري ، وقبل أن توضع له الأقسام ، وتقعد القواعد .

وعندما بدأ البحث البياني عند العرب أولى رجال الفكر البياني التشبيه عناية خاصة ، تتناسب مع مكانته في ميدان الإبداع ، فالجاحظ (ت٢٥٥هـ) يسدد إليه نظرات نافذة تتناول كثيرا من مناحيه ،⁽¹⁾ وعقد المبرد (ت٢٨٥هـ) بابا كاملا عن التشبيه ، ذكر فيه عددا كبيرا من التشبيهات العجيبة لقدماء الشعراء ومحدثيهم ، ⁽²⁾ من ذلك – على سبيل المثال – قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا   وأرحُلِنا الجَزْعِ الذي لم يثقَّب

وقول النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركي   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وغير ذلك من التشبيهات الرائعة التي تناقلها النقاد والبلاغيون فيما بعد ، وأداروا عليها البحث في هذا الميدان . « ولا خلاف أن بلغاء الأدباء – وإن لم يحدوا التشبيه – فإنهم قد كشفوا عن مزاياه وخصائصه ، ومبلغ الصلة بين طرفيه ، وموضع الحسن والقبح فيه ، فمهدوا السبيل للخلف في بنائه على قواعد محكمة وأسس متينة . » ⁽³⁾

---

(١) استقصى تلك النظرات علي الجندي ، انظر كتابه : *فن التشبيه* (القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٢م) ، ١ : ٣٤ ومابعدها .

(٢) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، *الكامل* ، تحقيق محمد أحمد الدالي (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هـ) ، ٢ : ٩٢٢ ومابعدها ؛ وأبو الحسن عبد الله الخطيب ، *المبرد ودراسة كتابه الكامل* (الإسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م) ، ٤٣٥ ومابعدها .

(٣) الجندي ، *فن التشبيه* ، ١ : ٤٢ .

ولأن النقاد أدركوا قيمة التشبيه في فن القول شعره ونثره ، فقد وقفوا وقفات متأنية ، وبذلوا جهودا جادة للكشف عن الخصائص الفنية له ، والأسرار البلاغية التي ترقى بها إلى تلك المكانة ، وذلك في سبيل تحديد الإطار النظري للتشبيه . يقول ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) : « وليس كل شعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ، ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب ؛ منها الإصابة في التشبيه . »(٤)

ويقول صاحب *نقد النثر* : « وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم ، وكلما كان المشبِّه منهم في تشبيهه ألطف ، كان بالشعر أعرف ، وكلما كان بالمعنى أسبق ، كان بالحذق أليق . »(٥)

ويقول العسكري (ت٣٩٥هـ) : « والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ، ويكسبه تأكيدا ، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه . وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل مايستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان . »(٦)

ويقول الإمام عبد القاهر (ت٤٧١هـ) : « وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين ، حتى يختصر لك بعد مابين المشرق والمغرب ، ويجمع مابين المشئم والمعرق ، وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة في الجماد ، ويريك التئام عين الأضداد . »(٧)

والسكاكي (ت٦٢٦هـ) يقدمه على غيره من أبواب علم البيان ؛ لأنه كما يقول :

---

(٤) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، *الشعر والشعراء* ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ط٣ (القاهرة : دار التراث العربي ، ١٣٩٧هـ) ، ١ : ٩٠ .

(٥) المنسوب لقدامة بن جعفر ، *نقد النثر* (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٠هـ) ، ٥٨ .

(٦) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري ، *كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر* ، ط٢ (القاهرة : مطبعة محمد علي صبيح ، د.ت.) ، ٢٣٠ .

(٧) عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، *أسرار البلاغة* ، تحقيق محمود محمد شاكر (جدة : دار المدني ، ١٤١٢هـ) ، ١٣٢ .

« هو الذي إذا مهرت فيه ، ملكت زمام التدرب في فنون السحر البياني . » (٨)

ويقول الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) : « اعلم أنه مما اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة أمره في فن البلاغة ، وأن تعقيب المعاني به لاسيما قسم التمثيل منه ، يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها ، مدحا كانت أوذما أو افتخارا أو غير ذلك . » (٩)

كل هذه النصوص وغيرها مما لايتسع المقام لذكره ، تحاول الاقتراب من التشبيه بوصفه ظاهرة بلاغية أصيلة في البيان العربي ، للوقوف على سر العناية به ، ورغم تفاوت الآراء في ذلك ، إلا أنها تجمع على أن اهتمام البلغاء العرب لم يأت من فراغ ، وإنما جاء لأن التشبيه أسلوب من الأساليب ذات القدرة المتميزة في التعبير والتصوير ، وله مع ذلك قدرة عجيبة على التأثير في النفوس ، لذلك كان من أبرز طرق التعبير التي يظهر فيها التفاوت بين البلغاء ، ولهذا فقد « استكثر الشعراء من التشبيه ، ومهروا فيه وفي أفانينه ، ولم يخل شاعر قديم منه . » (١٠)

ولقد سبر النقاد أغوار التشبيه ، وأدركوا مناط التفاوت فيه ، حتى ميزوا بين الجيد منه والرديء ، وبين الحسن والأحسن ، وفاضلوا بين التشبيهات ، فقد جاء على ألسنة الرواة ونقاد الشعر قديما أوصاف تشير إلى تفاوت درجات إعجابهم بتشبيهات الشعراء ، لعل من أبرزها « التشبيه العقيم » و « التشبيهات العقم . »

وحين نتتبع معاني مادة « عقم » ومشتقاتها في المعجم ، نجدها تستعمل للتعبير عن أمور وصفات غير محمودة . فقد جاء في *لسان العرب* : « العَقْم والعُقْم ، بالفتح والضم : هزمة تقع في الرحم فلاتقبل الولد . عَقِمت الرحم عقْما ، وعُقِمت عُقْما وعَقْما وعَقَما ، وعَقَمها الله يعقمها عقما ، ورحِم عقيم وعقيمة ومعقومَة ، والجمع

---

(٨) أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ، *مفتاح العلوم* ، ضبط وشرح نعيم زرزور (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ) ، ٣٣١ .

(٩) جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، *الإيضاح في علوم البلاغة* ، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، ط٢(القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٨٤م) ، ٤ :١٩ .

(١٠) محمد بن الحسن الحاتمي ، *حلية المحاضرة* ، تحقيق هلال ناجي (بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٨م)، ٦٦ .

عقائم وعقم . . . وفي الحديث : سوداء ولود خير من حسناء عقيم . »(١١)

وقال الزمخشري : « ومن المستعار : ريح عقيم ، والدنيا عقيم لاترد على صاحبها خيرا ، وعقل عقيم لاينفع صاحبه . وفي الحديث المرفوع : « العقل عقلان ؛ فأما عقل صاحب الدنيا فعقيم ، وأما عقل صاحب الآخرة فمثمر . » والمُلْك عقيم لاينفع فيه نسب ، وداء عقام لايرجى البرء منه . »(١٢)

ويلاحظ مما تقدم أن المعنى المعجمي لهذه المادة اللغوية لايخرج عن الوصف بعدم الفائدة ، وعدم أداء الشيء لما ينتظر منه ، والحرمان مما يرغب فيه إلى درجة اليأس ، وكل ذلك مماينفر منه ، وتتوقى النفس ذكره .

أما في ميدان الدرس النقدي والبلاغي فإن كلمة «العقم» تستعمل وصفا للمعاني ، ولكنها تأخذ نحوا آخر ، لتدل على مايحمد ، ولتعبر عن أبعاد فنية يمدح بها الكلام ، وتكون سمة مائزة يسعى البلغاء إلى وجودها في كلامهم ، حتى سمي نوع من التشبيهات بـ « التشبيهات العقم ، » تمييزا لها من غيرها ، وإعلاء لذكرها ، وقد جاءت تلك التسمية محملة بقدر غير يسير من معاني التقدير والإعجاب .

وأول خبر لهذه التسمية قصة ذكرتها المصادر ، تتلخص في أن الرشيد استدعى الأصمعي (ت٢١٦هـ) في بعض الليالي إلى مجلسه ، وبعد أن استقر به المجلس ، قال له الرشيد : إني نازعت هؤلاء القوم . . . في أشعر بيت قالته العرب في التشبيه ، ولم يقع إجماعنا على بيت نركن إليه دون غيره ، فأردناك لفصل هذه القضية ، واجتناء ثمرة الخطار فيها ، فقلت : ياأمير المؤمنين إن التعيين على بيت واحد في نوع قد توسعت العرب فيه ، ونصبته معلما لأفكارها ، ومسرحا لخواطرها لبعيد أن يقع النص عليه ، ولكن أحسن الناس تشبيها امرؤ القيس . »(١٣)

---

(١١) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرَّم بن علي بن منظور ، *لسان العرب* ، تحقيق عبد الله علي الكبير ، محمد حسب الله ، وهاشم الشاذلي (القاهرة : دار المعارف ، ١٤٠١هـ)، ٥ : ٣٠٥٠ .

(١٢) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، *أساس البلاغة* (بيروت : دار صادر ، ١٣٩٩هـ) ، ٤٣١ .

(١٣) الحاتمي ، *حلية* ، ٦٧ ؛ وانظر : المظفر بن الفضل العلوي ، *نضرة الإغريض في نصرة القريض* ، تحقيق نهى عارف الحسن (دمشق : مجمع اللغة العربية ، ١٣٩٦هـ) ، ١٥٢ .

وأخذ القوم يتعاطون الكلام في التشبيهات التي أجاد فيها قائلوها ، ويفاضلون بينها ، ويتبارون في إيراد الأحسن منها ، إلى أن « قال الرشيد : أتعرف ياأصمعي تشبيها أفخم وأعظم ، في أحقر مشبه وأصغره ، وأنزر شيء في أحسن معرض من قول عنترة ، الذي لم يسبقه إليه سابق ، ولانازعه منازع ، ولاطمع في مجاراته فيه طامع ، حين شبه ذباب الروض العازب في قوله :(١٤)

وخلا الذباب بها يغني وحده غردا ، كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه فعل المكبِّ على الزناد الأجذم

ثم يا أصمعي ، هذا من التشبيهات العقم التي لاتنتج ، وشبهت بالريح العقيم التي لاتنتج ثمرة ، ولاتلقح شجرة .(١٥)

ومن هنا تتضح المناسبة بين المعنى اللغوي لكلمة « العقم » وبين المعنى الذي استجد في ميدان الدراسات البيانية ، فالتشبيهات التي توصف بالعقم هي تشبيهات تمتاز عن غيرها ، بأنها لاتتداول بين الشعراء ، وإنما ينفرد بها أصحابها . وقد روي أن الأصمعي عندما سمع بعض التشبيهات مما استحسنه بعض جلسائه عند الرشيد ، عقب بقوله : « هذا كله حسن بارع ، وغيره أحسن منه ، وإنما يجب أن يقال التعيين على ما يفترعه قائله ، فلم يُتعرض له ، أو تعرض له شاعر بعده فوقع دونه . »(١٦)

فمن سمات التشبيه العقيم أنه مبتكر متفرد في بابه ، مستكمل لمعناه ، بحيث لورامه شاعر غير الأول لقصر عنه ، ولم يستطع الإتيان بمثله ، وهذا وجه العلاقة بين

---

(١٤) عنترة بن شداد ، *ديوان عنترة* ، تحقيق محمد سعيد مولوي (بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٩٦٤م)، ١٩٧ ، وروايته : فترى الذباب بها يغني وحده ؛ وانظر : ابن أبي عون ، *التشبيهات* ، تحقيق محمد عبد المعيد خان (كمبردج : جامعة كمبردج، ١٩٥٠م)، ٣٨٩ .
وعنترة يصف روضة كثيرة العشب مخصبة مكتملة النبت ، فشبه غناء الذباب بها بغناء الشارب ، وفي البيت الثاني شبه الذباب إذا سن ذراعه بالأخرى برجل أجذم قاعد يقدح نارا بذراعيه ، والأجذم هو المقطوع اليد .

(١٥) انظر : الحاتمي ، *حلية* ، ٦٦ ومابعدها ؛ والخبر بتمامه في العلوي ، *نضرة الإغريض* ، ١٥٢ ومابعدها ، مع تفاوت في بعض الألفاظ والعبارات .

(١٦) الحاتمي ، *حلية* ، ٧٣؛ والعلوي، *نضرة الإغريض* ، ١٦٢ .

عقم المخلوقات والريح وعقم الكلام ، وهذا في حد ذاته تشبيه عجيب ، يجعل للكلام نسبا منه مايمتد ، ومنه ماينقطع ، فإذا كان التشبيه مما يمكن أن يستمد منه الآخرون كان ولودا ، وإن لم يكن كذلك كان عقيما . وهذا يدل على مدى حفاوة العرب بالمعاني وأنسابها ، وهي حفاوة تشبه إلى حد كبير حفاوتهم بأنسابهم ، وأنساب خيلهم وإبلهم، فهم يميزون في كل بين الأصيل وغير الأصيل ، وينزلون كلا منزلته .

ولاشك في أن التحول الذي شهدته كلمة « عقم » بانتقالها إلى ميدان الاصطلاح النقدي والبلاغي تحول ليس باليسير ، فبعد أن كانت صفة مذمومة ، أصبحت تعبر عن مجموعة من الخصائص الفنية ينفرد بها بعض الكلام دون بعض ، وتدل على مزية فيه ؛ لأنه لايوصف بها إلا تلك التشبيهات أو المعاني المبتكرة التي لم يسبق إليها ، ولايمكن لأحد أن يتصرف فيها بنقص أو زيادة ، أو أن يولد منها تشبيهات في موضوعاتها ، ولذلك جرى وصفها بالعقم ، واشتهر ذلك عند رجال الفكر البياني ، تشبيها لها بالريح العقيم ، التي ورد ذكرها في قوله تعالى : **﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾** (١٧)

لقد نقب الرواة واللغويون في ديوان الشعر العربي بحثا عن التشبيهات التي يصدق عليها اسم « العقم ، » حتى حاصروها . فقد روي عن الأصمعي أنه قال : «أجمع أبو عمرو بن العلاء ، وخلف الأحمر ، ويونس - وهؤلاء أهل العلم بالشعر - أن التشبيهات العقم التي انفرد بها أصحابها ، ولم يشركهم فيها غيرهم ممن تقدم ، ولا ممن تأخر أبيات معدودات ؛ أحدها : قول عنترة في تشبيه حنك الغراب بالجلمين : (١٨)

ظعن الذين فراقهم أتوقع   وجرى ببينهم الغراب الأبقع
خرق الجناح كأن لحيي رأسه   جلمان بالأخبار هش مولع

---

(١٧) سورة الذاريات ، الآية ٤١ .

(١٨) ابن شداد ، *ديوانه*، ٢٦٢ ، وفيه : حرق الجناح ، وحرق : يتناثر ريشه ويتساقط ، شبه منقار الغراب إذا فتحه ليصوت بالجلمين ، وخص الجلمين لأنه أراد تفريقه بين الأحباء ، وقطعه مابينهم .

وقول عدي بن الرِّقاع في تشبيه قرن الظبي : (١٩)

تزجي أغن كأن إبرة روقه   قلم أصاب من الدواة مدادها

وقول الراعي يصف قانصا ، جعد الرأس ، دنس الثياب : (٢٠)

فكأن فروة رأسه من شعره   زُرعت فأنبت جانباها فُلفلا

وقول بشر بن أبي خازم يشبه عروق الأرطى إذاَ حفر أصله الثور بأظلافه بالأعنة : (٢١)

يثير ويبدي عن عروق كأنها   أعنة خراز تُحطُّ وتُبْشَرَ

وقول الطرماح في وصف النعام : (٢٢)

مجتاب شملة بُرْجُد لسراته   قدرا ، وأسلم ماسواه البرجد

وقول ذي الرمة في تشبيهَ الليل ،ً(٢٣) ولم يقل أحد قبله ، ولابعده في هذا المعنى مثله ،

---

(١٩) البيت في : محمد بن سلام الجمحي ، *طبقات فحول الشعراء* ، تحقيق محمود شاكر (القاهرة : مطبعة المدني ، ١٩٧٤م) ، ٢ : ٧٠٧؛ وابن قتيبة ، *الشعر*، ٢ : ٦٠١ ؛ والجرجاني ، *أسرار* ، ١٥٤ ؛ وعبد العزيز الميمني ، *الطرائف الأدبية* (بيروت : دار الكتب العلمية ، د . ت .)، ٨٨، والروق : قرن الظبية .

(٢٠) الراعي النميري ، *ديوان الراعي النميري* ، تحقيق راينهرت فايپرت (بيروت : المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، ١٤٠١هـ) ، ٢٤٩ . وفيه : دَسِمَ الثياب كأن فروة رأسه .

(٢١) بشر بن أبي خازم ، *ديوان بشر بن أبي خازم* ، تحقيقَ عزة حسن (دمشق : مديرية إحياء التراث القديم بوزارة الثقافة والإرشاد القومي في سوريا ، ١٣٧٩هـ)، ٨٢ ، وتحط وتبشر : أي يصلح ويقشر ، شبه عروق الأرطى بحمرة الأعنة ، أي كأنها أعنة خراز بين جديد وبال .

(٢٢) الطرماح بن حكيم ، *ديوان الطرماح* ، تحقيق عزة حسن (دمشق ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، ١٩٦٨م) ، ١٤١ ؛ وروايته : ماسواها . ومجتاب : لابس ، برجد : كساء مخطط فيه سواد وبياض ، سراته : ظهره . شبه ريش الظليم بذلك الكساء ، وقدرا : القدر مبلغ كل شيء ونهايته .

(٢٣) غيلان بن عقبة ذو الرمة العدوي ، *ديوان شعر ذي الرمة* ، تحقيق كارليل هنري هيس مكارتني (كمبردج : جامعة كمبردج، ١٣٣٧هـ) ، ١٢٩ ؛ وروايته : وليل كأثناء الرويزي جبته . والرويزي : طيلسان . يشبه الليل به ، وفسر الأربعة فقال : أحم أسود ، يعني الرحل علافي منسوب إلى علاف حي من العرب يعملون الرحال، والأبيض سيف صارم ، والأعيس يعني بعيره ، وأشعث يعني نفسه .

إلا أنهم قد شبهوا الليل بالطيلسان في خضرته ، وأمواج البحر ، وغير ذلك :

وليل كجلباب العروس ادرعته   بأربعة والشخص في العين واحد
أحمُّ علافيٌّ وأبيض صارم   وأعيس مَهْرِيٌّ ، وأروع ماجد

وقول مضرس بن ربعي في صفة نعامة : (٢٤)

صفراء عاريةُ الأكارع ، رأسها   مثل المدقِّ ، وأنفها كالمبرد» (٢٥)

فالأصمعي رغم علمه بالشعر ، يستند إلى أولئك الثقات الذين اشتهروا في هذا الميدان ، لكي يكتسب هذا الحكم النقدي مشروعيته ، وهو يدرك أن الاستناد إلى هؤلاء وأمثالهم من أهل العلم والخبرة والدراية بأبواب الشعر ومسالكه أمر له أهميته في سيرورة التسمية ، فإجماعهم في قضايا الشعر دليل صدق ، لذلك نجده يذكر عقب الأبيات السابقة ، عددا من التشبيهات التي وصفها هو بأنها مما لم يسبق إليها قائلوها ، وقصر عنها طالبوها ، (٢٦) ولكنه لم يسمها عقما ؛ لأنه على مايبدو لم يجد في نصوص الآخرين مايرجح ذلك .

خصائص التشبيهات العقم

يرتبط ظهور مصطلح « التشبيهات العقم » بتلك الحركة العلمية الكبرى التي

---

(٢٤) أبو علي الحسن بن رشيق ، القيرواني الأزدي ، *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده* ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٤(بيروت : دار الجيل ، ١٩٧٢م) ، ١ : ٢٩٨ ؛ العلوي ، نضرة ، ١٧٧ ، ويروى : صعراء ، ويروى أيضا : سكاء ، وفي رواية : أنفها كالمسرد . والمدق : حجر يدق به الطيب . والمسرد : المثقب .

(٢٥) الحاتمي ، *حلية* ، ٧٧ ومابعدها .

(٢٦) انظر : الحاتمي ، *حلية* ، ٧٩ . ومن تلك التشبيهات قول النابغة في تشبيه النسور :

تراهن خلف القوم خزرا عيونها   جلوس الشيوخ في ثياب المرانب

وقول عبد الله بن الزَّبير الأسدي في تشبيه رأس القطا بالجوزة :

تقلب للإصغاء رأسا كأنها   يتيمة جوز اعترتها المكاسر

وقوله أيضا :

ترى أثر الحيات فيها كأنها   مصانع ولدان بقضبان أسحل

بدأت في القرن الثاني الهجري ، وكانت تهدف إلى المحافظة على اللغة العربية ، واستنباط القواعد والمقاييس التي تضمن سلامتها ، وهذا قاد بطبيعة الحال إلى اتخاذ الشعر القديم مادة رئيسة يرجع إليها ، مما اقتضى توثيق الشعر ، ونسبته إلى قائليه ، الأمر الذي أثار عددا من القضايا التي أصبحت فيما بعد أهم المحاور التي دار عليها النقد العربي ،(٢٧) ومن أهمها : قضية السرقات ، واللفظ والمعنى ، والقدماء والمحدثين ، والموازنات بين الشعراء وما إلى ذلك . وقد استتبع البحث في هذه القضايا ظهور الكلام عن السابق واللاحق ، وعن تسلسل نسب المعاني .

في هذا الجو ظهر مصطلح « التشبيهات العقم » ليعبر به عن نوع خاص من التشبيه ، وهذه التسمية - كما تقدم - لها دلالتها في ميدان الدرس البياني ، فهي تشير إلى عدد من الخصائص الفنية التي يندر اجتماعها في تشبيه واحد . ولعل أول ماستوقف النقاد من تلك التشبيهات تشبيه عنترة في قوله :

وخلا الذباب بها يغني وحده غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه فعل المكب على الزناد الأجذم

فقد أعجب به البيانيون ومتذوقو الشعر ، و ثمنوه ، وأكبروا شأنه من قبل أن تظهر تلك التسمية ؛ لأنها تسمية لم تظهر ، ولم تشتهر - على الأرجح - إلا في كتاب *حلية المحاضرة* ،(٢٨) للحاتمي ، في أواخر القرن الرابع الهجري .

ومهما تعددت التشبيهات العقم أو كثرت ، فإنها تظل تعرف بعدد من الخصائص النوعية ، التي عليها تتكىء ، وبها تتميز ، وتلك الخصائص تظهر بجلاء من خلال كلام النقاد عن تشبيه عنترة الذي مر ذكره ، فهو الأكثر دورانا بين النقاد ، وعليه يقاس .

لقد أورد الحاتمي (ت٣٨٨هـ) مادار من حوار أدبي في مجلس الرشيد ،(٢٩)

---

(٢٧) عبد المنعم تليمة وعبد الحكيم راضي ، *النقد العربي - مداخل تاريخية حول اتجاهاته الأساسية* (القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٥م) ، ٢٢٥ .

(٢٨) إحسان عباس ، *تاريخ النقد الأدبي عند العرب* ، ط٤ (بيروت : دار الثقافة ، ١٤٠٤هـ)، ٥٥ .

(٢٩) أطراف الحوار هم : الرشيد ، والأصمعي ، ويحيى بن خالد البرمكي ، والفضل بن يحيى البرمكي ، وجعفر بن خالد البرمكي .

الذي احتكم فيه القوم إلى الأصمعي (٣٠) حول أشعر بيت قالته العرب في التشبيه، وجاء في ثنايا ذلك الحوار عدد من التشبيهات الجميلة، التي كان لايختلف على جمالها وروعتها، وعلى أنها من أبدع ماقيل، فقد استحسن الأصمعي قول امرىء القيس: (٣١)

كأن قلوب رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقوله: (٣٢)

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحُلِنا الجَزْع الذي لم يثقَّب

وقوله: (٣٣)

ولو عن نثا غيره جاءني وجُرْحُ اللسان كجرح اليد

وقوله: (٣٤)

سموت إليها بعدما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

واستحسن يحيى البرمكي تشبيه النابغة في قوله: (٣٥)

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العُوَّد

وفي قوله: (٣٦)

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وفي قوله: (٣٧)

---

(٣٠) انظر تفاصيل ذلك في: الحاتمي، *حلية*، ٦٦ ومابعدها.

(٣١) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو، *ديوان امرىء القيس*، *رواية الأصمعي*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م)، ٣٨.

(٣٢) امرؤ القيس، *ديوانه*، ٥٣.

(٣٣) امرؤ القيس، *ديوانه*، ١٨٥. والنثا: يكون في الخير والشر، والثناء لايكون إلا في الخير.

(٣٤) امرؤ القيس، *ديوانه*، ٣١.

(٣٥) زياد بن معاوية الذبياني، *ديوان النابغة الذبياني*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢(القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥م)، ٩٣.

(٣٦) الذبياني، *ديوانه*، ٣٨.

(٣٧) الذبياني، *ديوانه*، ١٧.

من وحش وجرة موشيٍّ أكارعه طاوي المصير كسيف الصيقل الفردِ

واستحسن الفضل بن يحيى تشبيه طرفة في قوله : (٣٨)

يشق حَباب الماء حيزومها بها كما قسم التربَ المفايلُ باليد

وفي قوله : (٣٩)

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكا لطول المرخى وثنياه في اليد

وفي قوله : (٤٠)

ووجه كأن الشمس ألقت قناعها عليه ، نقيّ اللون لم يتخدد

واستحسن جعفر البرمكي قول امرىء القيس : (٤١)

كأن غلامي إذ علا ظهر متنه على ظهر باز في السماء محلق

وقول عدي بن الرِّقاع : (٤٢)

يتعاوران من الغبار مُلاءةً غبراء محكمة ، هما نسجاها
تطوى إذا وردا مكانا جاسيا وإذا السنابك أسهلت نشراها

وقول النابغة : (٤٣)

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

إلى هنا كانت النتيجة أن ذكر كل طرف مايستحسنه من التشبيهات ، دون أن

---

(٣٨) طرفة بن العبد ، *ديوان طرفة بن العبد* (بيروت : دار صادر ، د. ت.) ، ٢٠ ، والحيزوم : الصدر والجمع الحيازيم . الفيال : ضرب من اللعب ، وهو أن يجمع التراب فيدفن فيه شيء ، ثم يقسم التراب نصفين ، ويسأل عن الدفين في أيهما هو . شبه شق السفن الماء بشق المفايل التراب المجموع بيده .

(٣٩) ابن العبد ، *ديوانه* ، ٣٤ .

(٤٠) ابن العبد ، *ديوانه* ، ٢١ . والتخدد : التشنج والتغضن .

(٤١) امرؤ القيس ، *ديوانه* ، ١٧٣ . وفيه : إذ علا حال متنه .

(٤٢) البيت في : ابن أبي عون ، *التشبيهات* ، ٤٣ ؛ عبد الرحيم بن أحمد العباسي ، *معاهد التنصيص* ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت : عالم الكتب ، ١٣٦٧هـ) ، ١ : ١٩٢ ؛ الميمني ، *الطرائف* ، ٩٦ ، مع فروق في الرواية ، والبيتان في وصف الغبار الذي يثيره حماران وحشيان يعدوان .

(٤٣) الذبياني ، *ديوانه* ، ٧٤ . وفيه : بأنك شمس .

يجمعوا على تشبيه واحد ، أو شاعر واحد ، إلا أن ذلك لم يسلم منه شيء إلا ما اختاره الأصمعي . أما البقية فقد طعن فيها الحكم (الأصمعي) ، وأخذ عليها مآخذ - كما سيتضح فيما بعد - أراد بها الحط من شأنها ، وتجريح ماستحسنه الثلاثة ، ليخلو الميدان أمام الرشيد .

وقد كان للأصمعي مع ماستحسنه الرشيد شأن آخر ، حيث وافقه الأصمعي فيما استحسن ، ولم يبد أي اعتراض ، ليكسب هذا الفارس الأخير الرهان ، في تلك الليلة ، وبعد ذلك الحوار الذي تباينت فيه الأذواق ، وكان للنقد فيه حضوره الواضح .

وقبل أن يسدل الستار اهتز الرشيد - كما يقول الأصمعي(٤٤) - فوق سريره سرورا ، وكاد يطير عنه عجبا وطربا ، وبدأ في سرد ماوقع عليه اختياره ، فجاء تشبيه عنترة في ذباب الروض العازب (٤٥) أول اختياره ، وزكى ذلك الاستحسان الأصمعي ، وأقره عليه دون نزاع .

ثم واصل الرشيد ذكر اختياره وماستحسنه . قال الأصمعي : « فقال (يعني الرشيد) : مهلا لاتعجل ، أتعرف أحسن من قول الحطيئة يصف لغام ناقته ؟ أو تعلم أحدا قبله ، أو بعده شبه تشبيهه فيه حيث يقول : (٤٦)

ترى بين لحييها إذا ماتزغمت لغاما كبيت العنكبوت الممدد

فقلت : لا ، والله ، ماعلمت أحدا تقدمه ، ولا أشار إلى هذا التشبيه قبله ، أو بعده . قال : أتعرف أوقع أو أبدع من تشبيه الشماخ بنعامة سقط ريشها وبقي أثره :

كأنما منثنى أقماع مامرطت من العفاء بليتيها الثآليل (٤٧)

---

(٤٤) الحاتمي ، *حلية* ، ٧٤ .

(٤٥) سبق ذكره .

(٤٦) جرول بن أوس ، الحطيئة ، *ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت والسكري والسجستاني* ، تحقيق نعمان أمين طه (القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٧٨هـ) ، ١٥٥ .
والتزغم : صوت ضعيف ، واللغام للإبل وهو مثل القطن يخرج من أفواهها .

(٤٧) الشماخ بن ضرار الذبياني ، *ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني* ، تحقيق صلاح الدين الهادي (القاهرة : دار المعارف، ١٩٦٨م) ، ٢٧٨ . أقماع : جمع قمع ، بكسر القاف وفتح الميم ، وأصله الذي على رأس الثمرة . شبه آثار ماسقط من ريشها بأقماع الثمرة . مامرطت : مانتفت. من العفاء : من الريش الذي يكون على الصغار . بليتيها : صفحتي عنقها. الثآليل : البثرات التي تكون في الجسد .

فقلت : لا ، والله . فالتفت إلى يحيى . فقال : أوجب ؟ قال : وجب . قال : أفنزيدك ؟ قال : وأي خير لم يزدني منه أمير المؤمنين . قال : وقول النابغة الجعدي :(٤٨)

رمى ضرع ناب فاستهل بطعنة   كحاشية البرد اليماني المسهم

ثم التفت إلى الفضل ، فقال : أوجب ؟ قال : وجب . قال : أزيدك ؟ قال : ذلك إلى أمير المؤمنين . قال : قال الأعرابي :(٤٩)

بها ضرب أذناب العضايا كأنها   ملاعب ولدان تحط وتمصع

ثم التفت إلى جعفر فقال : أوجب ؟ قال : وجب . قال . قال : أزيدك ؟ قال : لأمير المؤمنين علو الرأي . قال : قول عدي بن الرقاع (٥٠) . . . فقلت ياأمير المؤمنين ، هذا بيت حسد عليه عديا جرير . . . قال : لله درك ياأصمعي ، ثم أطرق ، ورفع رأسه ، وقال : أتراك تفتنني عن عقلي بانحطاطك في شعبي ؟ فقلت : كلا ياأمير المؤمنين إنك لتجل عن الحرش .(٥١) فقال : انظر حسنا . قلت : قد نظرت . قال : فالسبق لمن ؟ قلت : لأمير المؤمنين . »(٥٢)

ومع أن الأصمعي يحكم بالسبق للرشيد في كل ماستحسن واختار ، إلا أن ذلك الاختيار لم يثبت أمام ماأجمع عليه الرواة واللغويون ، حيث لم تتحقق خصائص التشبيه العقيم إلا لاثنين منها ، هما : تشبيه عنترة ، وتشبيه عدي بن الرقاع ؛ أما البقية فلم تثبت أمام النقد المحايد .

---

(٤٨) قيس بن عبد الله الجعدي ، *شعر النابغة الجعدي* ، عني به عبد العزيز رباح (بيروت : المكتب الإسلامي ، د . ت .)، ١٤٣ . وفيه : فاستمر بطعنة. الناب : الناقة المسنة. البرد المسهم : المخطط بصور على شكل السهام. وقوله : رمى ضرع ناب : هي ناقة خاله جساس. والبيت له قصة ذكرها محقق الديوان .

(٤٩) لم أعثر على قائل هذا البيت. والمصع : التحريك ، وقيل : هو عدو شديد يحرك فيه الذنب ، شبه حركة أذناب العضايا بملاعب الولدان .

(٥٠) الذي مر ذكره ضمن التشبيهات العقم ، ولهذا البيت قصة ستأتي .

(٥١) الحرش : الإغراء والخديعة. ابن منظور ، *اللسان* ، « حرش » .

(٥٢) الحاتمي ، *حلية* ، ٧٤ ومابعدها .

لقد اتجه النقاد بعد ذلك إلى محاولة استكناه السر في تفوق تلك التشبيهات التي سميت بالعقم ، يقول الجاحظ : « ولايعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، وفي معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مخترع ، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره ، فإنه لايدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكا فيه ، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء ، فتختلف ألفاظهم ، وأعاريض أشعارهم ، ولايكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال : إنه خطر على بالي من غير سماع ، كما خطرعلى بال الأول . هذا إذا قرعوه به ، إلا ماكان من قول عنترة في صفة الذباب ، فإنه وصفه فأجاد وصفه ، فتحامى معناه جميع الشعراء ، فلم يعرض له أحد منهم ، ولقد عرض له بعض المحدثين ، ممن كان يحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ، ومن اضطرابه فيه أنه صار دليلا على سوء طبعه في الشعر ، قال عنترة :

جادت عليها كل عين ثـرة فتركن كل حديقة كالدرهم
فترى الذباب بها يغني وحده هزجا كفعل الشارب المترنم
غردا يحك ذراعه بذراعه فعل المكب على الزناد الأجذم »(٥٣)

ولقد أحسن الجاحظ حين ذكر البيت السابق للتشبيه ، خلافا لماجرت به عادة النقاد ، فالذباب « وإن كان مكروها ، فإنه دليل الخصب وكثرة النبات . »(٥٤) وعنترة كان يصف كثرة الغيث في الروضة ، ولادليل على ذلك إلا ذكر البيت الأول ؛ أما في التشبيه فإن الشاعر يريد « فعل الأقطع المكب على الزناد . والأجذم : المقطوع اليدين ، فوصف الذباب إذا كان واقعا ، ثم حك إحدى يديه بالأخرى ، فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين ، يقدح بعودين ، ومتى سقط الذباب فإنه يفعل ذلك . »(٥٥)

فمما عرفه الجاحظ من أحوال الشعراء أنهم يحرصون أبدا على متابعة النتاج

---

(٥٣) أبو عثمان عمرو بن بحرالجاحظ ، *الحيوان* ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٢(القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي ، ١٣٨٥هـ) ، ٣ : ٣١١ - ٣١٢ .

(٥٤) أبو العلاء المعري ، *رسالة الصاهل والشاحج* ، تحقيق عائشة عبد الرحمن (بيروت : دار المعارف ، ١٣٩٥هـ) ، ٣٤٤ .

(٥٥) الجاحظ ، *الحيوان* ، ٣ : ٣١٢ .

الشعري لغيرهم ، وأن من عادتهم أنهم يفيدون من كل جديد بديع يخترعه أحدهم ، حتى يصبح ذلك الجديد مألوفا بين جمهور الأدب ، بعد أن كان خاصا بصاحبه ، وهذا حال جميع التشبيهات والمعاني ، فإن الشعراء يتصرفون فيها ، ويشتقون منها ، ويأخذونها أحيانا بأعيانها ، وكأنها حق مشاع للجميع ، إلا تشبيه عنترة فإنه قد أجاد فيه الوصف ، وأتم التصوير ، إلى الحد الذي تعذر معه على أحد من بعده أن يقول شعرا في معناه ، لما يتصف به من الاختراع والإصابة والغرابة ، فهو مما يتأبى على الأخذ والسرقة لغلبة الشاعر على ذلك المعنى ، « فلو أن امرأ القيس عرض في هذا المعنى لعنترة لافتضح . »(٥٦) وهذا ماجعل الجاحظ يقول : « قالوا : لم يدع الأول للآخر معنى شريفا ، ولا لفظا بهيا إلا أخذوه ، إلا بيت عنترة . »(٥٧) وما أكد عليه أبو هلال العسكري حين قال : « وقد ذكروا أن كل معنى للأوائل أخذه المتأخرون ، و تصرفوا فيه ، إلا قول عنترة في الذباب ، فإنه لم يتعرض له ، ولورامه من رامه لافتضح . »(٥٨)

واضح مما تقدم أن من أبرز خصائص التشبيهات العقم أن لم يُسبق أصحابها إليها ، ولاتعُدّي من بعدهم عليها ،(٥٩) إلا أن يكون ذلك بنقل المعنى إلى شيء آخر . وهذا مافعله ذو الرمة مع تشبيه عنترة . يقول ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) في باب الحذق في الأخذ : « ومن أنواع الأخذ نقل المعنى والصفة ، كقول عنترة يصف الذباب . . . لم يجسر عليه أحد ، غير أن ذا الرمة نقل معنى الصفة إلى الجندب ، فقال :(٦٠)

كأن رجليه رجلا مقطف عجل إذا تجاوب مع برديه ترنيم

المقطف راكب الدابة القطوف ، فنقل صفة يدي الذباب إلى رجلي الجندب ،

---

(٥٦) الجاحظ ، *الحيوان* ، ٣ : ١٢٧ .

(٥٧) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، *البيان والتبيين*، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٤ (بيروت : دار الفكر ، د . ت .) ، ٣ : ٣٢٦ .

(٥٨) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري ، *ديوان المعاني* (بيروت : عالم الكتب ، د . ت .) ، ٢ : ١٤٨ .

(٥٩) ابن رشيق ، *العمدة* ، ١ : ٢٩٦ .

(٦٠) ذو الرمة ، *ديوانه* ، ٥٧٨ .

فأحسن الأخذ ، وكأنه لم يعرض لعنترة في معناه . » (٦١)

ومع أن « العلماء بالشعر وجهابذة المعاني ، يرون أن قول عنترة السابق أوحد فرد يتيم فذ ، وأنه من المعاني العقم التي لاتولد ، » (٦٢) إلا أن كثيرا من الشعراء عبر القرون قد ارتادوا ذلك المعنى ، وكان النقاد يرصدون ذلك ، ويبينون مافيه من قصور ، لأنه لم يبلغ مابلغ تشبيه عنترة من الحسن ، نذكر من أولئك على سبيل المثال (٦٣) ابن الرومي في قوله :

وغرَّد ربعي الذباب خلاله كما حثحث النشوان صَنْجا مشرعا
فكانت أرانين الذباب هنالكم على شدوات الطير ضربا موقعا

وابن عبدون في قوله :

ساروا ومسك الدياجي غير منهوب وطرة الشرق غفل غير تذهيب
على ربا لم يزل شادي الذباب بها يلهى بآنق ملفوظ ومضروب
كالغيد في قبب الأزهار أذرعه قامت له بالمثاني والمضاريب

وقال أبو بكر بن سعيد البطليوسي :

كأن أهازيج الذباب أساقف لها من أزاهير الرياض محاريب

وقال السلامي في وصف زنبور :

إذا حك أعلى رأسه فكأنما بسالفتيه من يديه جوامع

وحازم القرطاجني في قوله :

ألقى ذراعا فوق أخرى وحكى تكلف الأجذم في قطع السنى
كأنما النور الذي يفرعه مقتدحا لزنده سقط ورى

هؤلاء الشعراء وغيرهم ، تملكهم الإعجاب بتشبيه عنترة ، فأخذوا يستلهمونه ويستمدون منه الصور ، ولكنهم فشلوا في الاقتراب من منزلته ، فضلا عن تجاوزه ، يقول العباسي (ت٩٦٣هـ) عن تشبيه حازم السابق ، ومكانته من تشبيه عنترة :

---

(٦١) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، *قراضة الذهب في نقد أشعار العرب* ، تحقيق الشاذلي بو يحيى (تونس : الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٢م) ، ٦٩ .

(٦٢) العباسي ، *معاهد* ، ٤ : ٣٥ .

(٦٣) انظر : العباسي ، *معاهد* ، ٤ : ٣٥ ومابعدها .

«فقصر عنه التقصير البين ، وأخل بذكر الإكباب والحك ، ولهما في هذا التشبيه موقع بديع ، مع التكلف البادي على قوله : تكلف الأجذم في قطع السنى ، ثم رام أن يزيد فيه فقال : كأنما النور . . . البيت . »(٦٤)

ولاغرابة أن يقال عن ذلك التشبيه : إنه لم يقل أحد في معناه مثله ، وأن يعده أرباب الأدب من التشبيهات العقم ، وهي التي لم يسبق إليها ، ولا يقدر أحد عليها .(٦٥) وأن يستقر الأمر بين النقاد والبلاغيين ، على أن « المعاني الشهيرة البارعة الحسن كتشبيه عنترة هذا ، لاينبغي أن يتعرض لأخذها متعرض إلا بالزيادة البينة البديعة الموقع ، والعبارة الناصعة السهلة ، حتى يتبين الفضل للثاني على الأول . . . وإلا كان فاضحا لنفسه ، وماسخا للمعنى الذي تعرض لأخذه . » (٦٦)

ومما تقدم يمكن إجمال أبرز خصائص وسمات التشبيه العقيم فيما يأتي :

١ - السبق والجدة والابتكار .

٢ - الاختراع للمعنى والإبداع في اللفظ .

٣ - الاحتفاظ بالتفرد في المعنى الذي يؤديه .

٤ - استيفاء عناصر الصورة وإحكامها .

٥ - إصابة الشبه الخفي .

٦ - الندرة والغرابة .

٧ - غير قابل للتصرف بالنقص أو الزيادة .

٨ - الجمع بين المتباينات في الجنس .

التشبيهات العقم في البحث النقدي والبلاغي

لقد لقيت التشبيهات العقم قدرا جيدا من العناية بها - على تفاوت فيما بينها - في المصنفات النقدية والبلاغية قديما ، واقترن ورودها أو ورود شيء منها عند أصحاب

---

(٦٤) العباسي ، *معاهد* ، ٤ : ٣٦ .

(٦٥) عبد القادر بن عمر البغدادي ، *خزانة الأدب ولب لباب العرب* ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط٢(القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م) ، ١ : ١٢٧ .

(٦٦) العباسي ، *معاهد* ، ٤ : ٣٦ .

تلك المصنفات بالاستحسان ، وإطلاق الأوصاف التي تعبر عن الإعجاب والتثمين ، والإكبار لشأنها وشأن أصحابها .

ولعل أكثر تلك التشبيهات تداولا على أقلام النقاد تشبيه ابن الرقاع في وصف قرن الظبي ، وتشبيه عنترة في الذباب ، حتى ذاع صيتهما ذيوعا منقطع النظير ، وربما كان ذلك بسبب ظروف أو مواقف خاصة ، لم تتوافر لغيرهما . فتشبيه ابن الرقاع ارتبط بخبر فيه نوع من الإثارة ، المصحوبة بالاعتراف بتميزه . فالمبرد يعده من التشبيه الجيد ، ويذكر الخبر الذي جاء فيه : « يروى أن جريرا دخل إلى الوليد ، وابن الرقاع العاملي عنده ينشده القصيدة التي يقول فيها :

غلب المساميح الوليد سماحة   وكفى قريش المعضلات وسادها

قال جرير : فحسدته على أبيات منها ، حتى أنشد في صفة الظبية :

تزجي أغن كأن إبرة روقه

قال : فقلت في نفسي : وقع والله ، مايقدر أن يقول أو يشبه به ، قال : فقال : قلم أصاب من الدواة مدادها . قال : فما قدرت حسدا له أن أقيم حتى انصرفت . »(٦٧)

فجرير على شاعريته يعجب بهذا التشبيه ؛ لأنه تشبيه مستطرف ، يقوم على الدقة والجمع الحاذق بين الأشياء المتباعدة في جهة يندر أن ينفذ إليها خاطر .

أما تشبيه عنترة في الذباب فلأن عددا كبيرا من الشعراء قد حاولوا أخذه أو السير على منواله فهو حي في الذاكرة النقدية ، لايرد الكلام عن المعاني العقم أو التشبيهات العقم إلا كان تشبيه عنترة في صدر الشواهد التي توضح ذلك .

لقد احتلت التشبيهات العقم مكانها ومكانتها في التفكير النقدي والبلاغي ، بشكل لاتخطئه العين ، ويتجلى ذلك في مظهرين ؛ أولهما : المعالجات النقدية ، والآخر : التنظير البلاغي .

---

(٦٧) المبرد ، *الكامل* ، ٢ : ١٠٤٦ . وانظر القصة : أبو الفرج الأصفهاني ، *الأغاني* ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩١هـ) ، ٩ : ٣١٣ ؛ العسكري ، *ديوان المعاني* ، ٢ : ١٣١ ؛ الجرجاني ، *أسرار* ، ١٥٣-١٥٤ ، مع اختلاف في لفظ الرواية .

أولا : المعالجات النقدية :

لم يفتأ النقاد منذ بداية النقد المنهجي يذكرون تلك الأبيات كلها أو بعضها ، مجتمعة أو متفرقة ، ويشيدون بها ، فقد ذكر ابن قتيبة تشبيه عنترة في الذباب ، ووصفه بأنه مما سبق إليه ولم ينازع فيه ،(٦٨) وذكر تشبيه عدي بن الرقاع في قوله : « وكان – أي ابن الرقاع – شاعرا محسنا ، وهو أحسن من وصف ظبية وصفا ، فقال :

كالظبية البكر الفريدة ترتعي من أرضها قفراتها وعهادها
خضبت لها عقد البراق جبينها من عركها علجانها وعرادها
كالزين في وجه العروس تبدّلت بعد الحياء فلاعبت أرادها
تزجي أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها »(٦٩)

كما ذكر تشبيه الطرماح ، قال : « وكان الأصمعي يستجيد قوله في صفة الظليم :

مجتاب شملة برجد لسراته قدرا ، وأسلم ماسواه البرجد

ويستجيد قوله في صفة الثور :

يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد »(٧٠)

وذكر التشبيه الأول ضمن ماذكر من أبيات في النعام ، بعد أن قال عنه : وكان الأصمعي يستحسنه ويتعجب منه .(٧١)

كما أن ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) قد استحسن تشبيهي عنترة ، وتشبيه ابن الرقاع ، وعدها من التشبيهات العجيبة ،(٧٢) ذات الخصوصية .

---

(٦٨) ابن قتيبة ، *الشعر* ، ١ : ٢٥٩ .

(٦٩) ابن قتيبة ، *الشعر* ، ٢ : ٦٦٢ –٦٦٣ .

(٧٠) ابن قتيبة ، *الشعر* ، ٢ : ٥٩٤ .

(٧١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، *المعاني الكبير في أبيات المعاني* (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ) ، ١ : ٣٢٨ .

(٧٢) عبد الله بن المعتز ، *البديع* ، نشر وتعليق أغناطوس كراتشقوفسكي ، ٧٠ ومابعدها .

وبناء على وضوح خصائص التشبيه العقيم في أذهان النقاد ، فقد رد الأصمعي – كما سبقت الإشارة – عددا من التشبيهات التي عدها بعضهم من التشبيهات العقم ، كما ذكر الحاتمي ،(٧٣) حيث اعترض الأصمعي على يحيى البرمكي حين عد النابغة أشعر الناس تشبيها في قوله :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها   نظر السقيم إلى وجوه العوَّد

وفي قوله :

فإنك كالليل الذي هو مدركي   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وفي قوله :

من وحش وجرة موشيٍّ أكارعه   طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد

قال الأصمعي : أما تشبيهه مرض الطرف فحسن ، إلا أنه قد هجنه بذَكر العلة ، وتشبيهه امرأة بالعليل ، وأحسن منه قول عدي بن الرقاع :

وكأنها بين النساء أعارها   عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت   في عينه سنة وليس بنائم

وأما تشبيه الإدراك بالليل ، فقد ساوى الليل والنهار فيما يدركانه ، وإنما كان سبيله أن يأتي بما ليس له قسيم ، حتى يأتي بمعنى ينفرد به ، ولو شاء قائل أن يقول إن قول النميري في هذا أحسن لوجد مساغا إلى ذلك ، حين يقول :

فلوكنت بالعنقاء أو بأسومها   لخلتك إلا أن تصدَّ تراني

أما قوله : « طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد » ، فالطرماح أحق بهذا المعنى ؛ لأنه أخذه وزاد عليه ، وقال :

يبدو وتضمره البلاد كأنه   سيف على شرف يسلُّ ويغمد

فقد جمع في هذا البيت استعارة لطيفة بقوله « وتضمره » ، وتشبيه اثنين باثنين ، بقوله : يبدو ويخفى ، ويسل ويغمد ، وجمع حسن التقسيم ، وصحة المقابلة .

واعترض على الفضل بن يحيى حين عد طرفة أحسن الناس تشبيها في قوله :

يشق حباب الماء حيزومها بها   كما قسم الترب المفايلُ باليد

---

(٧٣) انظر تفاصيل ذلك في : الحاتمي ، *حلية* ، ٦٨ ومابعدها .

وفي قوله :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد

وفي قوله :

ووجه كأن الشمس ألقت قناعها عليه ، نقي اللون لم يتخدد

قال الأصمعي : هذا حسن ، وغيره أحسن منه ، وقد شركه في هذا المعنى جماعة من الشعراء قبل وبعد ، فطرفة صاحب واحدة ، لايقطع بقوله مع البحور ، وإنما يعد من أصحاب الواحدة .

كما اعترض على جعفر بن خالد حين ذهب إلى أن أحسن بيت واحد تشبيها ، قول امرىء القيس :

كأن غلامي إذ علا ظهر متنه على ظهر باز في السماء محلق

وقول عدي بن الرقاع :

يتعاوران من الغبار ملاءة غبراء محكمة ، هما نسجاها
تطوى إذا وردا مكانا جاسيا وإذا السنابك أسهلت نشراها

وقول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

قال الأصمعي : هذا كله حسن بارع ، وغيره أحسن منه ، وإنما يجب أن يقال التعيين على مايفترعه قائله ، فلم يتعرض له ، أو تعرض له شاعر بعده ، فوقع دونه .

فأما قول امرىء القيس : « على ظهر باز في السماء محلق » فمن قول أبي دؤاد :

إذا شاء راكبه ضمه كما ضم باز إليه الجناحا

وأما قول عدي بن الرقاع : « يتعاوران من الغبار ملاءة » فمن قول الخنساء :

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاوران ملاءة الفخر

وأول من أطلق هذا المعنى شاعر جاهلي قديم من بني عقيل فقال :

يثيران من نسج الغبار عليهما قميصين : أسمالا ويرتديان

وقد شارك عديا أبو النجم ، وأورده في أخصر لفظ ، فقال يصف عيرا وأتانا ، وماأثاراه من الغبار بعدوهما :

ألقى بجنب القاع من غبارهما سرباله ، وانثام في سربالها

وأما قول النابغة فقد تقدمه فيه شاعر قديم من شعراء كندة ، يمدح عمرو بن هند ، وهو أحق به من النابغة ، قال :

تكاد تميد الأرض بالناس إن رأوا لعمرو بن هند غضبة وهو عاتب
هو الشمس وافت يوم سعد فأفضلت على كل ضوء والملوك كواكب

واضح مماتقدم أن الأصمعي يرد تلك الاختيارات انطلاقا مما أخذه عليها من عدم موافقتها للمعايير النقدية التي لايوصف التشبيه بالعقم إلا بتوافرها ، ولعل من أهم المآخذ التي أخذها على تلك التشبيهات مايأتي :

١ - عدم تحقق السبق والابتكار للمعنى .
٢ - عدم الاحتفاظ بالتفرد في المعنى .
٣ - قبول التصرف بالزيادة أو النقص .
٤ - عدم استيفاء عناصر الصورة الفنية .
٥ - قصور الإبداع في الصياغة اللغوية .

والغريب أن الأصمعي كان يعلم عدد تلك التشبيهات التي جاء الإجماع على تسميتها بالعقم ، ومع ذلك نجده يضيف إليها تشبيهات انفرد هو بوصفها بالعقم ، وذلك حين قال : « ومن هذه التشبيهات التي سبق إليها قائلوها ، وقصر عنها طالبوها ، بل لم يتعرض لها متعرض من الشعراء ، قول النابغة في تشبيه النسور :

تراهن خلف القوم خزرا عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرانب

وقول عبد الله بن الزَّبير الأسدي في تشبيه رأس القطا بالجوزة :

تقلب للإصغاء رأسا كأنها يتيمة جوز اعترتها المكاسر

وقوله أيضا :

ترى أثر الحيات فيها كأنها مصانع ولدان بقضبان أسحل
قرت نطفة بين التراقي كأنها لذي سقط بين الجوانح مقفل
لأصهب صيفي يشبه خطمه إذا قطرت تسقيه حبة فلفل

تقلب رأسا كالنواة وواثقـــا   بورد قطاة غلّست ورد منهل » (٧٤)

ويبدو أن الأصمعي كان يحس أن هذا الحكم لن يسلم له أمام إجماع القوم على حصر التشبيهات العقم في عدد محدد ، وهذا ماكان بالفعل حيث خالفه ابن رشيق ، واعترض عليه في تشبيه النابغة في النسور ، قال : « وهذا التشبيه عندهم عقيم إلا أني أقول : إنه من قول طرفة يصف عقابا :

وعجزاء دفت بالجناح كأنهـا   مع الصبح شيخ في بجاد مقنع

وينظر أيضا إلى قول امرىء القيس قبله :

كأن ثبيرا في عرانين وبلـــه   كبير أناس في بجاد مزمل » (٧٥)

وكما حاول الأصمعي توسيع دائرة التشبيهات العقم ، والاجتهاد في محاولة الاستدراك على سابقيه ، نجد ابن رشيق يبدي محاولة مشابهة . ومما وصفه بالتشبيه العقيم ، قول الحطيئة يصف لغام ناقته :

ترى بين لحييها إذا ماترغمت   لغاما كبيت العنكوت الممـدد

وقول الشماخ يصف آثار ريش نعامة :

كأنما منثنى أقماع مامرطت   من العفاء بليتيها الثآليل » (٧٦)

وينفرد ابن رشيق - فيما أعلم - من بين النقاد في أنه أخذ يستلهم الخصائص النوعية للتشبيه العقيم ، ليبحث عنها في التشبيهات النثرية أيضا ، حتى عمت نظرته القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، يقول : « وفي الشعر من هذا صدر جيد ، وفي القرآن تشبيه كثير » ، كقوله تعالى : **﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾** ، (٧٧) وقوله تعالى : **﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾** ، (٧٨) وقوله : **﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ**

---

(٧٤) الحاتمي ، *حلية* ، ٧٩ .

(٧٥) ابن رشيق ، *العمدة* ، ١ : ٢٩٨ .

(٧٦) ابن رشيق ، *العمدة* ، ١ : ٢٩٧ .

(٧٧) سورة يس ، الآية٣٩ .

(٧٨) سورة النور ، الآية٣٩ .

كَالظُّلَلِ﴾ (٧٩) ، وقوله : ﴿**كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ** مُّنتَشِرٌ﴾ . (٨٠) ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم : « الناس كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية ، » وقال : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وكثير من هذا يطول تقصيه . » (٨١)

والحق أن تشبيهات القرآن الكريم ، وتشبيهات الرسول صلى الله عليه وسلم من النمط العالي الذي لايصل إليه الشعراء مهما بذلوا ، وهذا ماثبت على مر الأزمان وانتهت إليه الدراسات التي عنيت بالبلاغتين القرآنية والنبوية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن ابن رشيق قد اتخذ من الإعجاب مقياسا لمعرفة التشبيهات العقم وتمييزها ، وهو مقياس ذوقي انطباعي له منازله ودرجاته ، والتشبيهات القرآنية والنبوية بلغت الغاية القصوى من الاستحسان ، لأسباب موضوعية كانت وراء خلودها وتجددها . (٨٢) ومعنى هذا أن ماانفرد به ابن رشيق من ذكر بعض التشبيهات القرآنية والنبوية تحت اسم « التشبيهات العقم » أمر ليس له مايبرره ؛ لأن تلك التسمية وذلك المصطلح قد وضع على عدد من تشبيهات الشعراء ، بناء على خصائص محددة ، جعلوها حدا بينها وبين غيرها ، وتشبيهات القرآن والحديث تتوافر على تلك الخصائص وعلى غيرها ، مما أهلها لأن تكون في مستوى أرقى من تشبيهات البلغاء مهما بلغ مستواها الفني ، ومهما كان لها من الخصائص الجمالية ، كما أننا لانجد أحدا من المفسرين يستعمل كلمة العقم في وصف شيء من تشبيهات القرآن الكريم .

ومع أن التشبيهات العقم تستطيع أن تحمي نفسها من السرقة حماية ذاتية لما تحمله من خصوصية ، إلا أن تلك النظرة المحفوفة بالحذر والريبة نحو شعر المحدثين في العصر العباسي ، أدت إلى اعتبار أدنى تشابه أو تقاطع أو التقاء بين المتأخر والمتقدم من باب السرقة التي تؤخذ على الشاعر ، وتؤثر في مكانته الشعرية ، (٨٣) أو على الأقل يشار

---

(٧٩) سورة لقمان ، الآية ٣٢ .

(٨٠) سورة القمر ، الآية ٧ .

(٨١) ابن رشيق ، *العمدة* ، ١ : ٢٩٩ .

(٨٢) حفني محمد شرف ، *التصوير البياني* (القاهرة : مكتبة الشباب ، ١٣٨٨هـ) ، ١٢٥ ومابعدها .

(٨٣) محمد مصطفى هدارة ، *مشكلة السرقات في النقد العربي - دارسة تحليلية مقارنة* ، ط٢(بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٣٩٥هـ) ، ٨١ .

إلى ذلك التشابه أو الالتقاء أو السبق . فالآمدي (ت٣٧٠هـ) -مثلا - يتوقف عند شيء من ذلك عندما تعرض لقول البحتري : (٨٤)

قد أقذف العيس في ليل كأن له   وشيا من النور ، أو أرضا من العشب

قال : « وقوله : في ليل كأن له وشيا من النور ، أي في ليل شديد الظلمة ، فإذا اشتدت ظلمته أشرقت كواكبه ماصغر منها وماكبر ، وأحسن ماتكون السماء إذا كانت هذه حالها . وإلى هذا المعنى ذهب ذو الرمة في قوله :

وليل كجلباب العروس ادرعته   بأربعة ، والشخص في العين واحد

أراد الحلي الذي على جلبابه . شبه الليل به في حسن نجومه ، وإنما يريد أنه أدرع ليلا شديد الظلمة ، مضيء الكواكب . » (٨٥)

وفي سياق مادار حول التشبيهات العقم عند النقاد ، يقول أبو إسحاق القيرواني (ت٤٥٣هـ) : « قال الجاحظ : نظرنا في الشعر القديم والمحدث ، فوجدنا المعاني تقلب ، ويؤخذ بعضها من بعض ، غير قول عنترة في الأوائل :

وخلا الذباب . . . (البيتان)

. . . وقول عنترة في وصف الذباب أوحد فرد ، ويتيم فذ ، وقد تعلق ابن الروم بذيله ، وزاد معنى آخر في قوله :

إذا أرنقت شمس الأصيل ونفضت   على الأفق الغربي ورسا مزعزعا
ولاحظت النوار وهي مريضة   وقد وضعت خدا على الأرض أضرعا
كما لاحظت عوادها عين مدنف   توجع من أو صابه ماتوجعا
وبين إغضاء الفراق عليهما   كأنهما خلا صفاء تودعا
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة   من الشمس فاخضر اخضرار مشعشعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى   كما اغرورقت عين الشجيِّ لتدمعا

---

(٨٤) أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري ، *ديوان البحتري* ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، ط٢(القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٢م) ، ١ : ١١٩ .

(٨٥) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، *الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري* ، تحقيق السيد أحمد صقر (القاهرة : دار المعارف ، ١٣٩٢هـ) ، ٢ : ٣٠٣ .

وأذكى نسيم الروض ريعان ظله   وغنى مغني الطير فيه مرجعا
وغرد ربعي الذباب خلاله   كما حثحث النشوان صنجا مشرعا
فكانت أرانين الذباب هناكم   على شدوات الطير ضربا موقعا » (٨٦)

وإذا كان ابن الرومي أخذه وزاد عليه ، فإن هناك من الشعراء من أخذه وأفسده ، من ذلك كما يقول ابن رشيق : « قول أبي محجن الثقفي في وصف قينة :

وترفع الصوت أحيانا وتخفضه   كما يطنّ ذباب الروضة الغرد

فأي قينة تحب أن تشبه بالذباب ؟ وقد سرق بيت عنترة ، وقلبه فأفسده . » (٨٧)

ويرى الأزدي (٦٢٣هـ) أن قول المملوك في صفة ظباء :

وقد بدت قطاع الغزلان   متفقات الشكل والألوان
كأنما العطار إذ صند لها   ضمخ من كافوره أسفلها
كأنما الأرواق (٨٨) واسودادها   أقلام كتاب بها مدادها

مأخوذ من قول عدي بن الرقاع :

تزجي أغن كأن إبرة روقه   قلم أصاب من الدواة مدادها (٨٩)

ولئن كانت تلك المعالجات النقدية قد أخذت تقتنص أي تشابه في المعاني الشعرية بعامة وفي التشبيه بخاصة ، وتكيل التهم ، وتحد من حرية الشاعر ، وتزيد من مخاوفه ،

---

(٨٦) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري ، *زهر الآداب وثمرة الألباب* ، شرح زكي مبارك ، ط٤ (بيروت : دار الجيل ، ١٩٧٢م) ، ٣ : ٧٩٥ - ٧٩٧ ؛ والأبيات انظر : علي بن العباس بن جريج بن الرومي ، *ديوان ابن الرومي* ، اختيار وتصنيف كامل كيلاني (القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٧٢م) ، ٢ : ٣٠١ . والصنج : هو الذي يكون في الدفوف ونحوه . ابن منظور ، *اللسان* : صنج .

(٨٧) ابن رشيق ، *العمدة* ، ١ : ٣٠٢ .

(٨٨) الأرواق : جمع روق وهي القرون .

(٨٩) علي بن ظافر الأزدي ، *غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات* ، تحقيق محمد زغلول سلام ومصطفى الجويني (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٣م) ، ١٦٢ . والمملوك هو حسين بن عبد الله . انظر ترجمته في : خير الدين الزركلي ، *الأعلام* ، ط٦ (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٤م) ، ٢ : ٢٤٢ .

فإن هناك معالجات لهذه القضية اتسمت بالاعتدال والرزانة ، فهي تحاول أن تمنح الشاعر قدرا من الحرية في تشكيل صوره الشعرية ، وصياغة معانيه . ولعل أبرز تلك المعالجات ماقام به القاضي الجرجاني (ت٣٦٦هـ) ، حين قرر في وضوح أن المعاني تنقسم إلى : مشترك لايجوز ادعاء السرق فيه ، ومبتذل ليس أحد أولى به ، ومختص وهو الذي حازه المبتدىء فملكه . (٩٠) وتقع التشبيهات العقم في القسم الثالث ، وهو المختص الذي تقع فيه السرقة ، وهذه اللفتة الجميلة من القاضي تأتي لتفتح في النقد أفقا جديدا ، وتطرح رؤية نقدية يأخذ بها النقاد والبلاغيون من بعده ، وتحظى التشبيهات العقم بنصيبها منها .

ثم جاء الحاتمي وأفاد مما أنجزه سابقوه في هذا الميدان ، وجمع شتات ماتفرق في كتبهم ، فكان مما قام به أن حصر أنواع السرقات في تسعة عشر نوعا ، وأعطى لكل نوع اسمه ، أو المصطلح الذي يدل عليه ، (٩١) وعد من ضمن تلك الأنواع المعاني العقم .

ويأتي أبو هلال العسكري ليتناول قضية السرقات في فصلين ، فرق فيهما بين الأخذ الحسن ، والأخذ القبيح ، (٩٢) ويبدو أنه قد بدأ بحث القضية وفي ذهنه ذلك التفريق الحاد بين ماهوعقيم من المعاني وماهو غير عقيم ، لذا نجده يفرق بين ضربين من المعاني ، فيقول : « والمعاني على ضربين ؛ ضرب يبتدعه صاحب الصناعة ، من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه ، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها . . . والآخر مايحتذيه على مثال تقدم ، ورسم فرط . »(٩٣)

ولكنه مع هذا ينتهي إلى أنه « ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم ، ويوردوها في غير

---

(٩٠) القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، *الوساطة بين المتنبي وخصومه* ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي (بيروت : دار القلم ، ١٣٨٦هـ) ، ١٨٣ - ١٨٤ .

(٩١) الحاتمي ، *حلية* ، تحقيق جعفر الكتاني (بغداد : وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٧٩م) ، ٢ : ٤٣ .

(٩٢) العسكري ، *كتاب الصناعتين* ، ١٨٦ ومابعدها .

(٩٣) العسكري ، *الصناعتين* ، ٦٧ .

حليتها الأولى ، ويزيدوها في حسن تأليفها ، وجودة تركيبها ، وكمال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها . »(٩٤)

وهكذا ينظر إلى القضية من منظور جديد ، هو المنظور البلاغي ، الذي من شأنه التركيز على الصياغة اللغوية ، والتشكيل الفني الجميل ، والذي رصد أبو هلال على هدى منه أبرز ملامح الأخذ الذي يعد قبيحا ، وهي :(٩٥)

١ - أخذ المعنى بلفظه كله .

٢ - أخذ المعنى بأكثر لفظه .

٣ - عرض المعنى في معرض مستهجن .

٤ - أخذ المعنى البين بإخفائه .

٥ - أخذ الموجز المختصر بإطالته من غير زيادة في معناه .

فالأخذ لم يعد تهمة تلقى على كل من ارتاد معاني السابقين ، إلا حين يسيء الأخذ ؛ أما حين يتصرف فنيا في التعبير عن المعاني المسبوق إليها فإنه لايعد سارقا ، وهذه رؤية نقدية متطورة ، تفضي إلى أن تكون المعاني حقا مشاعا ، غير قابل للاحتكار ، إلا إذا اختص السابق بخصوصية لم يستطع اللاحق تجاوزها فنيا ، وقد توافر السبق والخصوصية الفنية للتشبيهات العقم ، حيث جاءت على مستوى من الجودة والإحكام في التعبير عن معانيها ، بحيث يصعب تداولها ، أو استيلاد صور جديدة منها ، وبحيث لو حاول ذلك أحد من اللاحقين لوقع في شيء من المحظورات التي تجعل من الأخذ أخذا قبيحا ، والاستمداد سرقة ، ولذلك قلت نسبة الشعراء الذين اقتربوا أو تقاطعوا مع ماعرف بالتشبيهات العقم ، إذا استثنينا ماكان مع تشبيه عنترة كما تقدم ؛ لأن أحدا لم يستطع تجاوزها لاعلى مستوى المعنى ، ولاعلى مستوى اللفظ . ومن هنا ضاق ميدان البحث في السرقات ، وأصبح في دائرة محددة ، وهذا ماأكد عليه ابن رشيق حين قال : « السرقة إنما تقع في البديع النادر والخارج عن العادة في العبارات التي هي الألفاظ . »(٩٦)

---

(٩٤) العسكري ، *الصناعتين* ، ١٨٦ .

(٩٥) العسكري ، *الصناعتين* ، ٢١٧ ؛ وهدارة ، *مشكلة السرقات* ، ١١٢ .

(٩٦) ابن رشيق ، *قراضة الذهب* ، ٢٠ .

وعندما انتهى الأمر إلى الإمام عبد القاهر ، احتفى به أيما حفاوة ، في ظل نظرية النظم ، التي ترى أن التفاوت والمزية تظهر من خلال النظم والصياغة ، فخطا بما وجد عند سابقيه خطوات إلى الأمام ، في سياق كلامه عن التمثيل والتشبيه والاستعارة .

لقد قسم الإمام المعاني قسمين : عقلي وتخييلي ،(٩٧) وبالتالي فإنه يتفق مع السابقين من النقاد في أن من المعاني ماهو عام مشترك ، ومنها ماهو مخترع خاص ، وأن المعنى العقلي العام لامجال للقول بالسرقة فيه ، ويبقى المعنى التخييلي هو مظنة السرقة والأخذ . ولكنه مايلبث أن ينفي السرقة عن هذا النوع أيضا ، حين جعل الاتفاق بين الشاعرين لايخلو من أن يكون في الغرض على الجملة والعموم ، أو في وجه الدلالة على ذلك الغرض ، ويرى أن الاتفاق في عموم الغرض لايكون الاشترك فيه داخلا في الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة ، كأن يصف كل واحد منهما ممدوحه بالشجاعة والسخاء ، أو حسن الوجه والبهاء ، أو وصف فرسه بالسرعة ، أو ماجرى هذا المجرى .

أما الاشتراك في وجه الدلالة على الغرض ، فهو أن يذكر مايستدل به على إثباته له الشجاعة والسخاء مثلا ، وذلك ينقسم أقساما : منها التشبيه بما يوجد هذا الوصف فيه على الوجه البليغ والغاية البعيدة ؛ كالتشبيه بالأسد ، وبالبحر في البأس والجود ، والبدر والشمس في الحسن والبهاء ، والإنارة والإشراق . ومنها ذكر هيئات تدل على الصفة من حيث كانت لاتكون إلا فيمن له الصفة ، كوصف الرجل في حال الحرب بالابتسام ، وسكون الجوارح وقلة الفكر .

والاتفاق في وجه الدلالة على الغرض فيه تفصيل - أيضا - إذ يجب أن ينظر ، فإن كان مما اشترك الناس في معرفته ، وكان مستقرا في العقول والعادات ، فإن حكم ذلك ، وإن كان خصوصا في المعنى ، حكم العموم الذي تقدم ذكره ، ومن ذلك التشبيه بالأسد في الشجاعة ، وبالبحر في السخاء ، وبالبدر في النور والبهاء ؛ لأن هذا مما لايختص بمعرفته قوم دون قوم ، ولايحتاج في العلم به إلى روية واستنباط وتدبر وتأمل ، وإنما هو في حكم الغرائز المركوزة في النفوس ، والقضايا التي وضع العلم بها في القلوب .

---

(٩٧) الجرجاني ، *أسرار* ، ٢٦٣ ومابعدها .

«وإن كان مما ينتهي إليه المتكلم بنظر وتدبر ، ويناله بطلب واجتهاد ، ولم يكن كالأول في حضوره إياه . . . بل كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر ، وعليه كمٌّ يفتقر إلى شقه بالتفكر ، وكان درا في قعر بحر لابد له من تكلف الغوص عليه ، وممتنعا في شاهق لايناله إلا بتجشم الصعود إليه ، وكامنا كالنار في الزند ، لايظهر حتى تقتدحه ، ومشابكا لغيره كعروق الذهب التي لاتبدي صفحتها بالهوينا ، بل تنال بالحفر عنها ، وتعريق الجبين في تطلب التمكن منها . . . فهو الذي يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية ، وأن يجعل فيه سلف وخلف ، ومفيد ومستفيد، وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر ، وأن الثاني زاد على الأول أو نقص عنه ، وترقى إلى غاية أبعد من غايته ، أو انحط إلى منزلة هي دون منزلته . » (٩٨)

ولا شك أن التشبيهات العقم تعد من هذا النوع الأخير ، لأنها من المخترع الذي يتأبى أخذه أو الاقتراب منه ، وإذا نظرنا إليها على أساس من هذا ، أدركنا مدى تأثيرها وفاعليتها في النظرية النقدية التي انتهى إليها البحث عند الإمام عبد القاهر ، فالتشبيهات العقم كان لها صداها في صياغة النظرية ، حيث أمدت النقاد بما يمكن الاحتكام إليه في قضية من أهم القضايا النقدية ، ألا وهي قضية السرقات الشعرية ، فلم تعد تلك التشبيهات أبياتا تعد وتتلى ، بل اتجهت الأنظار إلى خصائصها وأسرار تفوقها ، التي أسهمت في تحديد مستويات التشبيه ، وبالتالي تحديد الأسس الثابتة للتمييز بين أنواع الأخذ والسرقة ، على اعتبار أن تلك التشبيهات بخصائصها تمثل الأنموذج الأعلى ، أو الصورة المثالية للتشبيه .

واكتملت هذه الرؤية ونضجت عند حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) ، حين تناول المعاني من حيث كونها قديمة متداولة ، أو جديدة مخترعة . فقد حاصر أقسام المعاني في قوله : « إن من المعاني مايوجد مرتسما في كل فكر ، ومتصورا في كل خاطر ، ومنها مايكون ارتسامه في بعض الخواطر دون بعض ، ومنها مالا ارتسام له في خاطر ، وإنما يتهدى إليه بعض الأفكار في وقت ما ، فيكون من استنباطه ، فالقسم الأول هي المعاني

---

(٩٨) الجرجاني ، *أسرار* ، ٣٣٨ ومابعدها بتصرف .

التي يقال فيها إنها كثرت وشاعت ، والقسم الثاني مايقال فيه إنه قل ، أو هو إلى حيز القليل أقرب منه إلى حيز الكثير ، والقسم الثالث هو المعنى الذي يقال فيه إنه ندر وعدم نظيره . » (٩٩)

ثم يقف حازم عند هذه الأقسام الثلاثة ، ويناقشها من المنظور النقدي في ضوء فكرة السرقات ، ويقرر أن القسم الأول لاسرقة فيه ، ولاحجر في أخذ معانيه ؛ لأنها ثابتة مرتسخة في خواطر الناس ، «ولافضل فيها لأحد على أحد إلا بحسن تأليف اللفظ ، فإذا تساوى تأليفا الشاعرين في ذلك ، فإنه يسمى الاشتراك ، وإن فضلت فيه عبارة المتأخر عبارة المتقدم ، فذلك الاستحقاق ؛ لأنه استحق نسبة المعنى إليه ، بإجادته نظم العبارة عنه ، وإن قصر فيه عمن تقدمه فذلك الانحطاط . »

أما القسم الثاني «فما كان بهذه الصفة ، فلاتسامح في التعرض إلى شيء منه إلا بشروط ؛ منها أن يركب الشاعر على المعنى معنى آخر ، ومنها أن يزيد عليه زيادة حسنة ، ومنها أن ينقله إلى موضع أحق به من الموضع الذي هو فيه . »

أما القسم الثالث - وهو المهم هنا - فإنه يمثل المرتبة العليا في الشعر من جهة استنباط المعاني ، «من بلغها فقد بلغ الغاية القصوى من ذلك ؛ لأن ذلك يدل على نفاذ خاطره ، وتوقد فكره ؛ حيث استنبط معنى غريبا ، واستخرج من مكامن الشعر سرا لطيفا . . . وما كان بهذه الصفة فهو متحامى من الشعراء لقلة الطمع في نيله ، إذ لايكون المعنى من الغرابة والحسن بحيث مرت العصور ، وتعاورت ذلك الموصوف الألسنة ، فلم تتغلغل الأفكار إلى مكمنه ، إلا وهو من ضيق المجال ، وبعد الغور بحيث لايوجد التهدي إلى مثله . » (١٠٠)

وقد أطال حازم الوقوف مع هذا القسم يعطيه اسمه القديم ، ويستشهد له ، ويفصل القول فيه . يقول : « والمعاني التي بهذه الصفة تسمى العقم ؛ لأنها لاتلقح ، ولاتحصل عنها نتيجة ، ولايقتدح منها مايجري مجراها من المعاني ، فلذلك تحاماها

---

(٩٩) أبو الحسن حازم القرطاجني ، *منهاج البلغاء وسراج الأدباء* ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، ط٢(بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨١م) ، ١٩٢ .

(١٠٠) القرطاجني ، *منهاج* ، ١٩٢ - ١٩٣ ، ١٩٤ .

الشعراء ، وسلموها لأصحابها ، علما منهم أن من تعرض لها مفتضح . ألا ترى أنهم عابوا على ابن الرومي - وحظه من الاختراع الحظ الأوفر - تعرضه لقول عنترة :

وخلا الذباب بها يغني وحده   هزجا كفعل الشارب المترنم
غردا يسن ذراعه بذراعه   قدح المكب على الزناد الأجذم

بقوله يصف روضة :

وغرد ربعي الذباب خلالها   كما حثحث النشوان صَنْجا مشرعا
فكانت لها زجُ الذباب هناكم   على شدوات الطير ضربا موقعا

على أن ابن الرومي قد نحا بالمعنى نحوا آخر ، حين جعل تغريد الذباب ضربا موقعا على شدوات الطير . . . فمثل هذه المعاني النادرة إذا وقع فيها مثل قول ابن الرومي ، ووقع فيها زيادة ما من جهة ، وإن كان فيها تقصير من جهة أخرى ، يجب أن يصفح عن قائليها ، في ماوقع لهم من التقصير ، إذا وقع لهم إزاء ذلك زيادة ، وإن كان ماقصروا عنه أجل مما زادوا . »(١٠١)

وهذا تسامح واضح من حازم القرطاجني ، واعتدال يوسع على الشاعر ، ويعطيه مزيدا من الفسحة في تناول معاني السابقين ومحاولة توليدها . « أما من نقل المعنى النادر من غير زيادة ، فذلك من أقبح السرقات ؛ لأنه تعرض لسرقة مالايخفى على أحد أنه سرقه . » (١٠٢)

وهكذا ينتهي الأمر في ذلك إلى أنه إذا استطاع الشاعر أن يبرز المعنى النادر في عبارة أشرف من الأولى ، أو زاد على المتقدم زيادة في المعنى مع تحسين اللفظ ، فإن ذلك يمدح ولا يذم ، (١٠٣) وقد استغرق ذلك حتى استقر عدة قرون ، تكاملت فيها الرؤى ، حتى توحدت في رؤية منصفة للمتأخر والمتقدم على حد سواء ، ويكفي تلك الأبيات المعدودة قيمة ، ويكفي أصحابها فخرا أنها قد سرت في التفكير النقدي ، بحيث كانت دائما قضية تستحوذ على النقاد في معالجاتهم النقدية على المستويين النظري

---

(١٠١) القرطاجني ، منهاج ، ١٩٤ - ١٩٥ .

(١٠٢) القرطاجني ، منهاج ، ١٩٥ ، وقد تقدم ذكر بيتي ابن الرومي برواية الديوان .

(١٠٣) انظر : القرطاجني ، منهاج ، ١٩٥ - ١٩٦ .

والتطبيقي ، وتولد عنها بعض الآراء التي ماكانت لتوجد لولا وجود تلك الأبيات ، واشتهار أمرها في ديوان الشعر العربي ، وبهذا تكون قد احتفظت بمكانتها الفنية في ميدان الإبداع ، وفي ميدان النقد .

ثانيا : التنظير البلاغي

لقد نشأ الدرس البلاغي وترعرع في أحضان القرآن الكريم ، لذلك لم تجد التشبيهات العقم عناية كبيرة عند أصحاب الاتجاه البلاغي القدماء ، وكل الذي نجده عندهم أنهم يذكرونها عرضا حين يعرضون لتصنيف التشبيهات ، فابن طباطبا (ت٣٢٢هـ) - مثلا -تحدث عن ضروب التشبيهات ، فذكر تشبيه ابن الرقاع ، على أنه من تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة ، (١٠٤) وتشبيه عنترة في الذباب على أنه من تشبيه الشيء بالشيء حركة وهيئة ، (١٠٥) ولم يبعد صاحب الصناعتين عن ذلك في الفصل الذي عقده في حد التشبيه وما يستحسن منه ، فقد عد تشبيه ابن الرقاع من تشبيه الشيء بالشيء صورة ، (١٠٦) ووصفه بأنه من مليح التشبيه وبديعه ، (١٠٧) وعد تشبيه ذي الرمة مما يتضمن معنى اللون وحده ، (١٠٨) وتشبيه عنترة في الذباب من التشبيه في حالة الحركة . (١٠٩)

حتى ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) ، مع تأخر زمانه ، لم يزد على أن ذكر تشبيهي ابن الرقاع وعنترة ، على أنهما من التشبيه المختار ، ووصفهما بأنهما من التشبيهات الصحاح . (١١٠)

---

(١٠٤) محمد أحمد بن طباطبا ، *عيار الشعر* ، تحقيق عباس عبد الستار (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢هـ) ، ٢٣ .

(١٠٥) ابن طباطبا ، *عيار* ، ٢٥ .

(١٠٦) العسكري ، *كتاب الصناعتين* ، ٢٣٣ .

(١٠٧) العسكري ، *الصناعتين* ، ٢٤٠ .

(١٠٨) العسكري ، *الصناعتين* ، ٢٣٥ .

(١٠٩) العسكري ، *الصناعتين* ، ٢٣٦ .

(١١٠) الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي ، *سر الفصاحة* ، شرح عبد المتعال الصعيدي (القاهرة ، مكتبة صبيح ، ١٣٨٩هـ) ، ٢٣٩ .

أما الإمام عبد القاهر فقد كان له مع هذا النوع من التشبيه شأن آخر ، إذ اتجه إلى البحث عن المزايا التي تتفاضل فيها التشبيهات ، وكشف بعمق تناوله السر البلاغي في تفوق تلك التشبيهات وأمثالها على غيرها من الوجهة البلاغية .

وأشير هنا إلى أن الإمام لم يستعمل مصطلح « التشبيهات العقم، » ولم يجر له على قلم - فيما أعلم - ولكنه تحدث عن الخصائص الفنية التي امتازت بها ، مثل : الخفاء ، والبعد ، والغرابة ، والندرة ، وخلاف ذلك ، ممايدل على أنه يعلي من شأن التشبيه الذي توافر عليها أو على شيء منها ، وأخذ في تقويم التشبيهات ، وإنزالها منازلها على هدى من ذلك . يقول : « أن كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن تُرى وتُبصر أبدا ، فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفي الغاية القصوى من مخالفته ، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع ، ثم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطة لهذين الطرفين ، بحسب حالها منهما ، فما كان منها إلى الطرف الأول أقرب ، فهو أدنى وأنزل، وماكان إلى الطرف الثاني أذهب ، فهو أعلى وأفضل ، وبوصف الغريب أجدر . »(١١١)

إن هذا المعيار البلاغي مستلهم من تلك النماذج الراقية التي شهد الذوق العربي الأصيل بتفوقها في بابها ، والإمام عبد القاهر يسعى جاهدا للاستمداد منها ، والاستناد إليها ، لتحتل عنده مكانها اللائق في صلب النظرية البلاغية ، فقد جلى الأمر حول خصائصها ، وكيفيات التأتي إليها ، وأنها ليست مما يتاح لأي أحد من الشعراء ، فهي عنده دليل على قوة الشاعرية ، وسعة الخيال ، والفطنة ، ومما يحتاج إلى قدر غير يسير من المعاناة للوصول إليه ، فلكي يأتي التشبيه غريبا نادرا بديعا لابد من إصابة الشبه الصحيح الخفي بين المختلفين في الجنس ، ذلك الشبه البعيد الذي لايخطر على كل بال؛ لأن « الصنعة والحذق ، والنظر الذي يلطف ويدق ، في أن تجمع أعناق المتنافرات والمتباينات في ربقة ، وتعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشبكة ، وماشرفت صنعة ، ولا ذكر بالفضيلة عمل ، إلا لأنهما يحتاجان من دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر ، إلى مالا يحتاج إليه غيرهما . . . وذلك بين لك فيما تراه من الصناعات وسائر

---

(١١١) الجرجاني ، *أسرار* ، ١٦٥ .

الأعمال التي تنسب إلى الدقة ، فإنك تجد الصورة المعمولة فيها ، كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافا في الشكل والهيئة ، ثم كان التلاؤم بينهما مع ذلك أتم ، والائتلاف أبين ، كان شأنها أعجب ، والحذق لمصورها أوجب . » (١١٢)

فإدراك الشبه بين المتباينات ، وإبرازه في صورة جذابة ، يدل على براعة الشاعر ، وحذقه في فنه ، « ثم على حسب دقة المسلك إلى مااستخرج من الشبه ، ولطف المذهب وبعد التصعد إلى ماحصل من الوفاق ، استحق مدرك ذلك المدح ، واستوجب التقديم ، واقتضاك العقل أن تنوه بذكره ، وتقضي له بالحسنى في نتائج فكره . »(١١٣)

لقد أبرز الإمام هنا ماكان قد أدركه سابقوه من النقاد حول التشبيهات العقم ، ولم يعبروا عنه إلا بمجرد الإعجاب والانبهار أمام تلك الصور وماجرى مجراها . ولم يكتف بما تقدم حول مأتى الغرابة والندرة والإبداع في التشبيه ، وإنما أخذ في شرح وبيان الكيفية التي يكون عليها الجمع بين المتباينات المختلفات في الجنس . يقول في ذلك : « ولم أرد بقولي إن الحذق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس ، أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل في العقل ، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها ، فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل . ولذلك يشبه المدقق في المعاني بالغائص على الدر . . . ويدخل في هذا الموضع الحكاية المعروفة(١١٤) في حديث عدي بن الرقاع ، قال جرير : أنشدني عدي :

عرف الديار توهما فاعتادها

فلما بلغ إلى قوله :

تزجي أغن كأن إبرة روقه

---

(١١٢) الجرجاني ، *أسرار* ، ١٤٨ ؛ وانظر : حامد صالح الربيعي ، *مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء* (مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، ١٤١٦هـ) ، ١٦٨ ومابعدها .

(١١٣) الجرجاني ، *أسرار* ، ١٥٠ ؛ ولمزيد من التفصيل راجع : جابر عصفور ، *الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي* ، ط٢(بيروت : دار التنوير للطباعة والنشر ، ١٩٨٣م) ، ١٨٥ ومابعدها .

(١١٤) سبق ذكرها ، وذكر المصادر التي روتها . انظر حاشية رقم (٦٧) .

رحمته ، وقلت : قد وقع ! ماعساه يقول ، وهو أعرابي جلف جاف ؟ فلما قال :

قلم أصاب من الدواة مدادها

استحالت الرحمة حسدا . فهل كانت الرحمة في الأولى ، والحسد في الثانية ، إلا أن رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر مالايحضر له في أول الفكر وبديهة الخاطر ، وفي القريب من محل الظن شبه ، وحين أتم التشبيه وأداه صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف ، وعثر على خبيء مكانه غير معروف ؟ » (١١٥)

وعلى هذا لم يعد العقم صفة يوصف بها عدد من التشبيهات المعروفة ، وإنما تحول ذلك إلى نظرية يدخل فيها كل تشبيه جاء على منوالها ، وتوافرت له خصائصها ، وتتم الموازنة بين التشبيهات على أساس من سماتها التي من أهمها الندرة والغرابة والإبداع والبعد بين طرفي التشبيه .

على أن الإمام لم ينس خصوصية أخرى لها أهميتها ، وهي خصوصية السبق والابتكار ، التي تجعل من التشبيه متفردا في معناه ، وتمنع غيره من أن يرد مورده إلا بصعوبة . لذلك نجده في موضع آخر يقول : « إنا لنعلم من حال المعاني أن الشاعر يسبق في الكثير منها إلى عبارة يعلم ضرورة أنها لايجيء في ذلك المعنى إلا ماهو دونها ومنحط عنها ، حتى يقضى له بأنه قد غلب عليه واستبد به ، كما قضى الجاحظ لبشار في قوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فإنه أنشد هذا البيت مع نظائره ، ثم قال : وهذا المعنى قد غلب عليه بشار ، كما غلب عنترة على قوله :

وخلا الذباب . . . . (البيتان)

قال : فلو أن امرأ القيس عرض لمذهب عنترة لافتضح . (١١٦)

وليس ذلك لأن بشارا وعنترة قد أوتيا في علم النظم جملة مالم يؤت غيرهما ، ولكن لأنه إذا كان في مكان خبيء فعثر عليه إنسان وأخذه ، لم يبق لغيره مرام في ذلك

---

(١١٥) الجرجاني ، *أسرار* ، ١٥٢ ومابعدها ، والبيت من التشبيهات العقم كما تقدم .

(١١٦) انظر كلام الجاحظ في *الحيوان* ، ٣ : ١٢٧ .

المكان ، وإذا لم يكن في الصدفة إلا جوهرة واحدة ، فعمد إليها عامد فشقها عنها ، استحال أن يستام هو أو غيره إخراج جوهرة أخرى من تلك الصدفة . »(١١٧)

وهكذا تنتهي تلك الملحوظات العابرة التي أبداها رجال الفكر البياني إلى نظرية عند الإمام عبد القاهر ، يحدد على ضوئها قيمة التشبيه ومنزلته ، ويفاضل بين التشبيهات وفقا لمعطياتها ، وماتقدمه من تصورات ومقاييس فنية لها أهميتها البالغة من المنظور البلاغي .

ولعله من الغني عن البيان أن هذا النوع من البحث ، قد اختفى من مصنفات المتأخرين من علماء البلاغة ، إذ أصبحت القضية تتناول بشكل مبتسر ، لايمثل ماتناهت إليه عند الإمام .

فالسكاكي لم يجد في تشبيه ابن الرقاع – مثلا – سوى أنه قد أبرز المشبه في معرض التزيين أو الاستطراف ، (١١٨) كما أنه لم يجد في كلام الإمام عبد القاهر حول القضية إلا تقسيم التشبيه باعتبار وجه الشبه إلى قريب وغريب ، (١١٩) ونحو ذلك من التقسيمات التي أفقدت النظرية رواءها ، وقدتابعه ، وسار على طريقته كل البلاغيين(١٢٠) الذين ينتمون إلى مدرسته ، إلى درجة اضمحل معها وتلاشى ماأنجزه السابقون ، حتى أن التشبيهات العقم قد توارت من شواهدهم .

ولكن رغم هذا ، فإنه يكفي أن نعرف أن تلك التشبيهات قد كان لها تاريخ حافل في التراث الشعري ، ومن ثم في التراث النقدي والبلاغي ، وأنها قد حظيت بعناية القدماء ، وأسهمت بشكل واضح في تشكل كثير من الرؤى النقدية والبلاغية حول بعض القضايا التي كانت تشغل القوم في ميدان الدرس البياني .

---

(١١٧) عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، *الرسالة الشافية* ، تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول سلام ، ضمن *ثلاث رسائل في إعجاز القرآن* ، ط٢(القاهرة : دار المعارف ، ١٣٨٧هـ) ، ١٣٨ - ١٣٩ .

(١١٨) انظر : السكاكي ، *مفتاح* ، ٣٤٢ .

(١١٩) السكاكي ، *مفتاح* ، ٣٤٩ .

(١٢٠) انظر : القزويني ، *الإيضاح* ، ٤ : ٧٤ - ١٠٠ ؛ وشروح *التلخيص* (القاهرة : عيسى البابي وشركاه ، د . ت .) ، ٣ :٤٤٣ .

Futile Similes: Characteristics and Position in Rhetorical and Critical Research

Hamid Salih Khalaf Al-Rubey'i

Assistant Professor, College of Arabic Language,
Umm Al-Qura University, Makkah, Saudi Arabia

Abstract. This research deals with "futile similes". Those similes had been received with increasing admiration by the Arab taste which found in them a high-class sample of comparison in the Classical Arabic ode. They eventually became well-known and widespread to the extent that people versed in poetry gave them a specific name which singled them out at the level of form and content. There came a time, however, when nothing could be known about such similes except their name. Among modern researchers, they are known under a different name, although they had gone along with rhetorical and critical research since they appeared. They indeed had their historical and artistic presence within the fields of creativity and criticism. This research is an attempt to answer the following questions: What does "futile" mean in rhetorical convention? When did it appear? What are the artistic features that distinguish such similes from other types? And what is the extent of the presence of such features in rhetorical and critical thought? Such questions and the ideas, whether central or partial, which result thereupon are the subject matter and core of this research; and reaching satisfactory answers in the light of the data available in the ultimate goal.